إثبات العينين لله تعالى

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨]، وَقَوْلُهُ: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} [القمر: ١٣، ١٤]، {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]).

(الشرح)

يعتقد أهل السنة والجماعة أن لله، سبحانه وتعالى، عينين اثنتين، يُبصر بهما حقيقة؛ لا تُماثلان أعين المخلوقين؛ فما أُضيف إلى الله يختص به، وما أضيف إلى المخلوق يختص به، بل إن هذا الاختصاص حاصل في جميع الموجودات؛ فيقال مثلًا: عين الإنسان، وعين الصقر، وعين الكاميرا، وهكذا، ولا يلزم من اتفاق الأسماء اتفاق الحقائق، والمسميات.

قوله: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨]: الصبر في اللغة: الحبس والمنع، والخطاب لنبيه، صلى الله عليه وسلم، خطاب للأمة بعده.

وحكم الله نوعان: حُكم كوني قدري، وحُكم ديني شرعي، والصبر واجب فيهما؛ فالحكم الكوني القدري هو ما يُقدره الله تعالى من المصائب والبلاء؛ فيجب على الإنسان، الصبر عليه، بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن شق الجيوب ولطم الخدود، والدعاء بدعوى الجاهلية.

أما الصبر على حُكم الله الشرعي الديني فيكون بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي، وعدم الاعتراض على حكمه؛ كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

قوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}: أي بمرأى منا، نراك بأعيننا؛ فدلت على إثبات العينين لله، وهاهنا شُبهة يثيرها بعض المخالفين؛ يقولون: أنتم يا أهل السنة مُضطرون للتأويل مثلنا! لأنه لا يُمكن أن تكون عين الرب ظرفًا مكانيًا للنبي، صلى الله عليه وسلم! والحقيقة أنهم أُتوا بسبب عُجمتهم، وعدم ذائقتهم العربية؛ فإن معنى قول الله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} لا يقتضي من حيث الوضع العربي أن تكونا ظرفًا لذات المرئي؛ كما يقول الأب المؤدب لابنه: أنت بعيني؛ لا يقصد أنه بين أهدابه، وأشفار عينيه؛ يريد أراك بعيني، وكما يقول الشرطي للجاني أو المتهم: اذهب وأنت في عيني؛ مُراده تحت نظري، أُبصرك وأُتابعك، وهذا معنًا حقيقيًا؛ لا تجوُّز فيه البتة، وأهل السنة أعرف الناس بلغة العرب، وخطابه لعباده.

قوله: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} [القمر: ١٣]:

{وَحَمَلْنَاهُ}: المحمول هو نوح، عليه السلام، ومن معه من المؤمنين، وأزواج المخلوقات. قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: اللوح: هو الخشبة العريضة، والدُسر: المسامير، وهي السفينة، أو الفلك، الذي صنعه نوح، عليه السلام، بتعليم الله إياه.

قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: ١٤]:

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}: أي بمرأى منا، نراها بأعيننا، وتحت كلاءتنا ورعايتنا؛ فدلت على إثبات العينين لله تعالى، وأنه يُبصر بهما حقيقة، وليس فيه تأويل، ولا تحريف.

{جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}: يعني انتصاراً لنوح، عليه السلام، الذي كفر به قومه.

قوله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]:

{وَلِتُصْنَعَ}: أي لتنشأ وتترعرع.

{عَلَى عَيْنِي}: أي بمرأى مني، أراك بعيني؛ فدلت على إثبات صفة العين.

إشكال وجوابه:

وهاهنا إشكال متبادر للذهن، وهو أن النصوص، في إثبات صفة اليدين والعينين، وردت تارة بالإفراد، وتارة بالتثنية، وتارة بالجمع:

- فاليد بصيغة الإفراد؛ كما في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١].

وبصيغة التثنية؛ كما في قوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

وبصيغة الجمع؛ كما في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: ٧١]

- والعين بصيغة الإفراد؛ كما في قوله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩].

ولا نجد في القرآن آية فيها ذكر العينين بصيغة التثنية، وإنما ورد في السنة حديث فيه مقال: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ][1]، ويُمكن أن نستغني عنه بدليل صحيح، وإن لم يكن صريحاً في لفظه، لكنه صريح في معناه، وهو أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما ذكر الدجال، قال: [أَلَا إِنَّهُ

---

[1] أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة: رقم (١٢٨)، وذكره العقيلي في الضعفاء: (١/٢٥٩)، عند ترجمة إبراهيم بن يزيد الخوزي.

أَعْوَرُ، وَإِنّ رَبّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ]¹؛ فدل ذلك على أن الربّ، سبحانه وتعالى، له عينان اثنتان؛ لأنه ضد العور.

والعين بصيغة الجمع؛ كما في قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: ١٤].

فلِمَ جرى اعتبار التثنية دون الإفراد والجمع؟ **فالجواب أن يقال:**

أولًا: المفرد المضاف لا يُنافي التثنية ولا الجمع؛ ففي اللغة: المفرد المضاف يعم؛ فلو قال قائل: رأيت الحادث بعيني، لم يفهم أنه أعور، ولو قال: مشيت إلى المسجد برجلي؛ لم يفهم أنه مبتور إحدى الرجلين؛ لأن المفرد إذا أضيف تناول التثنية والجمع.

ثانيًا: أما التوفيق بين التثنية والجمع فيُقال: إن الجمع الوارد في قوله: {بِأَيْدِينَا}، {بِأَعْيُنِنَا}، لا يُقصد به التكثير، وإنما يُقصد به التعظيم؛ فإن الرجل المعظم، من بني آدم، إذا أراد أن يعبر عن نفسه، قال: نحن فلان بن فلان، أمرنا بما هو آت، وهو شخص واحد، ولما كانت (نا)، في أصل الوضع، تدل على الفاعلين، وقصد بها هنا التعظيم، لا التكثير، ناسب أن يكون المضاف على شاكلة المضاف إليه بصيغة الجمع؛ (أيدي)، (أعين)؛ ليكون تعظيمًا مُضاعفًا.

فتبين بهذا أن الجمع في قوله: {أَيْدِينَا} و {أَعْيُنِنَا} لا يُراد به حقيقة الجمع، الذي بمعنى التكثير، وإنما يُراد به التعظيم والمُشاكلة بين المُضاف والمُضاف إليه، وقد نطقت بذلك الآيات، وجاء ذلك صريحًا في السنة: (يَطْوِي اللهُ عَزّ وَجَلّ السّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَة، ثُمّ يَأْخُذُهُنّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبّرُونَ. ثُمّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِه)²، وكذلك في صفة العينين، قال: (وَإِنّ رَبّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)³؛ فدل ذلك على أن المقصود التثنية، لا الإفراد، ولا الجمع؛ فبذلك يزول الإشكال بين هذه الصيغ المُختلفة، وأن القول بالتثنية ليس تحكمًا، وإنما هو الموافق المطابق للنصوص، وللغة العرب.

وقد أنكر أهل البدع ما أثبت الرب لنفسه، وأولوا صفة العينين إلى العلم، وهُم مُقرون سلفًا بأنه لا دليل من الأثر على تأويلاتهم، وأنهم اقترحوها من باب الاجتهاد في حمل كلام الله على معان لائقة، حتى لا يظن العامة، بزعمهم، اعتقاد التمثيل! ولو سلم العامة منهم لكان خيرًا لهم، فإن العامة باقون على الفطرة الأصلية في تنزيه الله عن النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين؛ لكن المتكلمين أفسدوا عقائد العامة، ونقلوهم من الفهم الفطري العفوي الصحيح، إلى هذه اللوثات الباطلة، فأوقروا في قُلوب

---

¹ أخرجه البخاري: رقم (٧١٣١)، ومسلم: رقم (٢٩٣٣).

² أخرجه البخاري: رقم (٤٨١٢)، ومسلم: رقم (٢٧٨٨)، واللفظ له.

³ أخرجه البخاري: رقم (٧١٣١)، ومسلم: رقم (٢٩٣٣).

العامة أن هذه الآيات تدل على التمثيل، وأن الواجب صرفها عن ظاهرها، واستبدالها بمعان أُخرى، ولو بلا دليل! فأي مُجازفة ارتكبوها، وأي تضليل فعلوه في أعظم، وأخطر أبواب الدين، وهو باب العلم بالله تعالى؟!

والواجب أن نعتصم بالكتاب والسنة، ونُثبت ما أثبت الرب لنفسه؛ فالأدلة متوافرة على إثبات الصفات الخبرية لله، كما الصفات المعنوية والفعلية؛ فعلينا أن نتقبلها قبولًا حسنًا، وألا نضيق بها ذرعًا، وألا نستشنع شيئًا منها، وأن نعتقد فيها المثل الأعلى الذي أثبته الله، سبحانه وتعالى، لنفسه بقوله: {وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ} [النحل: ٦٠]، وقوله: {وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الروم: ٢٧]، وأن نُنزه الله تعالى عن كل نقص وعيب، ومُماثلة المخلوقين؛ فنُثبت لله إثباتًا بلا تمثيل، ونُنزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل.

هذه هي الطريق السوية، التي تُثمر العلم، والحكمة، والسلامة، وما سواها فسُبل ضلالة؛ تهوى بصاحبها في الدركات. ما حُجة هذا المُحرِّف، يوم القيامة، إذا قال له ربه: من أين لك أن اليد بمعنى النعمة؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك بأن العين بمعنى العلم؟ لا دليل له، ولا أثارة من علم، وإنما هي بنات أفكار، وظنون لا تغني من الحق شيئًا؛ ولذلك تختلف تأويلاتهم فيها، حتى ألف بعضهم (أقاويل الثقات في تأويل الصفات)، يذكر فيه للصفة الواحدة عدة تأويلات! ولا يُمكن أن يكون هذا العلم العظيم الشريف في مهب الريح؛ نهبًا لكل مقترح، وبابًا لكل طارق.

والأثر المسلكي للإيمان بصفة العينين لله تعالى أنه يحمل المؤمن على توقي أن يراه الله تعالى بعينيه على حال يسخطها، كما يحمله على أن يتعرض لربه أن يراه بعينيه على حال يرضاها؛ من قيام، أو صيام، أو صدقة، أو غير ذلك.

إثبات السمع والبصر لله تعالى

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: ١٨١]، {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٨ -٢٢٠]، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥]).

(الشرح)

قوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: ١]: دلت هذه الآية على إثبات السمع لله تعالى بعدة صيغ: {قَدْ سَمِعَ} و{اللَّهُ يَسْمَعُ} و{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، والسمع هو إدراك الأصوات؛ فلله تعالى سمع حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وسبب نزول هذه الآية، التي هي مُستهل سورة المُجادلة، ما جاء عَنْ خَوْلَةَ بنت ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: (فِيَّ وَاللهِ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِت أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ؛ قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ

مَا قُلْتَ حَتّى يَحكُمَ اللهُ وَرَسُولُه فِينا بحُكْمِه ، قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِه الْمَرْأَةُ الشّيْخَ الضّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنّي، قَالَتْ: ثُمّ خَرَجَتْ إِلَى بَعْضِ جَارَاتي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَها، ثُمّ خَرَجْتُ حَتّى جِئْتُ رَسُولَ الله صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْه صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِه، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ يَقُولُ: " يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمّك شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتّقِي اللهَ فِيه "، قَالَتْ: فَوَ اللهِ مَا بَرِحْتُ حَتّى نَزَلَ فِيّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشّى رَسُولَ الله، صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ، مَا كَانَ يَتَغَشّاهُ، ثُمّ سُرّيَ عَنْه فَقَالَ لِي: " يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِك "، ثُمّ قَرَأَ عَلَيّ: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١] إِلَى قَوْلِه: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ})[1].

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنّهَا قَالَتْ: (الْحَمْدُ لِلّه الّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللّه صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ {قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} [المجادلة: ١] الْآيَةَ)[2]، والمجادلة: هي الخصومة في الكلام؛ مأخوذة من (الجدل)، وهو الفتل، لشدته.

قوله: {وتشتكي إلى الله}: تقول ما ورد في بعض الروايات: (يا رسول الله إنّ لي مِنْهُ صِبْيَةً صغارًا، إنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْه ضاعوا، وإنْ ضَمَمْتُهُمْ إليّ جَاعُوا) (٣).

قوله: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}: المُحاورة: المراجعة في الكلام.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}: فدل ذلك على إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، هما: السميع، والبصير، ودل على إثبات وصفين، وهما: السمع، والبصر، وأتيا على صيغة (فعيل) للمبالغة؛ لأن الله تعالى له منهما المثل الأعلى، كسائر الصفات؛ فحقيقة السمع: إدراك الأصوات، وحقيقة البصر: إدراك المرئيات، وهذا معنًى مشترك في الأذهان، ويزول الاشتراك في الخارج عند إضافته إلى الأعيان؛ فيختص بمن أضيف إليه؛ فالله تعالى له منه المثل الأعلى، وللمخلوق المثل الأدنى.

قوله: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ} [آل عمران: ١٨١]: القائلون هم اليهود، لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يتلو: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: ١١]، فكانوا يتندرون، ويستهزئون، ويقولون: الله يسألنا القرض، الله فقير ونحن أغنياء؛ فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ: (قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِفِنْحَاصَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ

---

[1] أخرجه أحمد: رقم (٢٧٣١٩)، وابن حبان: رقم (٤٢٧٩)، وصححه ابن حبان، والألباني.

[2] أخرجه ابن ماجه: رقم (١٨٨)، والنسائي: رقم (٣٤٦٠)، وأحمد: رقم (٢٤١٩٥)؛ وأورده البخاري: تعليقًا-باب قَوْلِ اللّه تَعَالَى: {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤] (٩/١١٧)، وصححه الألباني.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٦/ ٣١٥)، وتفسير الثعالبي: (٢٦/ ١٢٢)، وتفسير البغوي (٨/ ٤٧).

وَأَحْبَارِهِمْ: اتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ، فَوَ اللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، وَاللهِ مَا بِنَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَيَفْتَقِرُ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا، وَإِنَّا عَنْهُ لَأَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا لَمَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُكُمْ، يَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَاهُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا. فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ. فَأَخْبَرَ فِنْحَاصُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ:" مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ " فَأَخْبَرَهُ، فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ وَقَالَ: مَا قُلْتُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: ١٨١] الْآيَةَ، إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١])[١].

الشاهد منه هو قوله: (لَقَدْ سَمِعَ)؛ فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى، ودل على أنه، سبحانه وتعالى، يسمع الأشياء في أحيانها وأوقاتها؛ لأنه عبر بصيغة الماضي، وعبر بصيغة المضارع، فالله تعالى يسمع الشيء وقت حصوله، وصدوره من قائله؛ مهما دق ومهما خفي؛ يرى ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، سبحانه وبحمده.

وفي الآية دليل على خُبث اليهود، ولؤم طباعهم، وما زالوا.

قوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [الزخرف: ٨٠]: هؤلاء هم المُنافقون، الذين كانوا إذا خلا بعضهم ببعض أخذوا يقعون في النبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، ويحيكون المؤامرات؛ فعجّب الله من حالهم، وقال: {أَمْ يَحْسَبُونَ}: أي هل يظنون؟! فالاستفهام للتعجب، والإنكار.

والسر: ما يكون من حديث النفس، والنجوى: حديث المتناجيين ويكون همسًا؛ فالله تعالى يسمع هذا وهذا؛ فما كان أعلى منه فمن باب أولى.

قوله: {بلى}: يعني بلى نسمع، خلافًا لما توهموا؛ فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى سمعًا حقيقيًا يليق بجلاله.

قوله: {وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}: الرُسل هنا: الملائكة الكرام، قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، فتعددت طرق الإدانة والإثبات.

قوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]: المخاطبان: موسى وهارون، عليهما السلام، لما قالا لربهما: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه: ٤٥]، يعني أن فرعون قد يرتكب حماقة، فيُهلكنا، فطمأنهما ربُهما بقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا}، وهذه معيّة خاصة، يأتي بيانها في موضعها.

[١] تفسير الطبري: (٧/ ٤٤١).

قوله: {أَسْمَعُ وَأَرَى}: دلت على إثبات السمع والبصر لله تعالى كما يليق بجلاله.

قوله: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]: نزلت هذه الآية في الرد على أبي جهل؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قال أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: وَاللَّات وَالْعُزَّى لئِنْ رَأَيْته يفعل ذَلك لَأَطَأَنّ عَلى رقبته، أَوْ لَأُعفرن وجهه في التُّراب. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ يصلّي، زَعَمَ ليطأ عَلَى رقبته، قَالَ: فما فجئهم منه إلّا وهو ينكُص عَلَى عَقِبَيْه، وَيَتَّقي بيديه، قَالَ: فقيل لَهُ: ما لك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لَخَنْدَقًا من نار، وهولًا وأَجنحة. فقال رَسُولُ الله صلّى الله عَلَيه وَسَلَّمَ: «لَوْ دَنَا منِي لَاخْتَطَفَتْه الْمَلَائكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»[١]. وعن ابن عبّاس، قَالَ: "مرّ أَبو جَهْلٍ فَقَالَ للنبي ﷺ : (أَلَمْ أَنْهَكَ، فَانْتَهَرَه النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْل: لَم تَنْتَهِرُني يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَ الله لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَاديًا مِنِّي، قَالَ: فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ} العلق: ١٧]، قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عبّاسٍ: " وَالله لَوْ دَعَا نَادِيَه، لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَاب (٢)؛ ففي الآية إثبات الرؤية لله، وهي البصر.

قوله: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٨ – ٢٢٠]:

{الَّذِي يَرَاكَ}: الخطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم.

{حِينَ تَقُومُ}: أي في صلاتك، أو يراد بها مطلق القيام.

{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: إما أن يراد بالساجدين المصلين، لكون السجود أشرف أركان الصلاة، فهو يراه سبحانه وتعالى أثناء صلاته بالمسلمين، أو أن المراد بالساجدين، عامة المسلمين؛ لأنهم أهل السجود لله تعالى، وربما أيدهُ قوله: (وتقلبك)؛ فهو يتقلب بين ظهرانيهم.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}: جمع الله، عز وجل، بين هذين الاسمين الحسنين معرّفين في خمسة عشر موضعًا في القرآن، وبصيغة (سميع عليم) في ستة عشر موضعًا، واقترانهما يدل على حسن مضاعف؛ فإن سمعه مقرون بعلم، كما أن علمه مؤيد بسمع.

قوله: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥]: المخاطبون بهذا المُنافقون، وقد كانوا يحيكون المؤامرات والدسائس، ويعملون أعمالًا في الخفاء؛ فتهددهم الله، وتوعدهم على لسان نبيه ﷺ ، بأنه سيرى عملهم، وسيُريه نبيه والمؤمنين، ويفضحهم؛ فأثبت الله

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه أحمد: رقم (٢٣٢٠) واللفظ له، والترمذي: رقم (٣٣٤٩).

لنفسه رؤية، وأثبت لرسوله، صلى الله عليه وسلم رؤية، وأثبت للمؤمنين رؤية، وليست رؤية كرؤية؛ فالرؤية المُضافة إلى الله تليق به، والرؤية المُضافة إلى النبي والمؤمنين تليق بهم.

تنبيه: يخطئ بعض الناس فيستدلون بهذه الآية عند القيام ببعض المشاريع والأعمال الخيرية؛ يظنون أنها مُناسبة للمقام، وأنها دعوة إلى العمل الصالح، لكن هذه الآية جاءت في سياق ذم المنافقين وتهديدهم؛ فلا يحسن الاستشهاد بها في مثل هذه المناسبات.

والأثر المسلكي لإيمان المؤمن بأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، يسكب في قلبه الطُمأنينة؛ لأنه يشعره بمعيته سبحانه، وأنه ليس بمضيعة.

ومن آثارها المسلكية: أن إيمانه بسمع الله يحمله على أن يعقل لسانه عما يسخطه؛ فلا يتكلم بغيبة، ولا نميمة، ولا شتيمة، فإذا همّ بكلمة ذكر أن الله يسمع كلامه؛ فلا يخرج منه ما يسخطه، وبالمقابل، فإن إيمانه بسمع الله تعالى يحمله على أن يتملق ربه وإلهه بالكلم الطيب؛ فيلهج بالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر؛ كما في حديث بلال بن الحارث المُزني، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). قَالَ: فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ)[١].

وإيمانه برؤية الله، عز وجل، وبصره يحمله على أن يستحي من الله أن يراه على ما يسخطه؛ ولهذا قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزّ وَجَلّ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ)[٢]، ويحفزه على أن يري الله من نفسه خيراً.

[١] أخرجه أحمد: رقم (١٥٨٥٢)، والترمذي: رقم (٢٣١٩)، وابن ماجه: رقم (٣٩٦٩)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٢٨٠)، والحديث أصله في صحيح البخاري.

[٢] أخرجه أحمد في الزهد: رقم (٢٤٨) والطبراني في الكبير: رقم (٥٥٣٩) واللفظ له، وقال الهيثمي، (في مجمع الزوائد): رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، (١٠-٢٨٤)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع: رقم (٤٣٠٦).